مجلة منبر التراث الأثري
ISSN: 2335-1500, EISSN: 2602-7267
المجلد: 01، العدد:01، 2012
ص275-290

مآذن تلمسان دراسة فنية ومعمارية

أ: ليلي بن أباجي
جامعة تلمسان

المقدمة

يعود تأخّر ظهور عنصر المئذنة في الإسلام إلى أن المسلمين الأوائل لم يتخدو موضعا مستقرا في المسجد للإعلان عن الصلاة، وذلك مند عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فتعد المئذنة إذا عنصرا معماريا جديدا أضيف إلى المسجد، فأعطت له ميزة معمارية يتحلى بها، وقد تطوّرت عبر العصور، وأعطت طابعا خصوصيا لمختلف المناطق الإسلامية، فقد جاوزت حدود أقاليم الإسلامية إلى التأثير على الشعوب المجاورة، وتميزت المئذنة بالأناقة والأصالة، وأضافت إلى المسجد الجمال والعظمة وأعطت للمدينة الإسلامية ميزة على بقية مدن العالم.

تعريف المئذنة:

المئذنة عبارة عن برج مرتفع يعلو من فوقه صوت المؤذن إعلانا بحلول وقت الصلاة عن طريق النداء ودعوة المسلمين إليها في أوقاتها الخمس ويوم الجمعة، والآذان أصل المئذنة وهي مكانه وهو مرتبط أساسا بساحة السمع[1].

ولقد تعددت الآراء حول ظهور فكرة الآذان، وورد في صحيح البخاري عن ابن عمر أنه كان يقول "كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة، ليس ينادي لها، فتكلموا يومًا في ذلك فقال بعضهم ناقوسًا مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم بل بوقًا مثل قرن اليهود، فقال عمر: أولاً تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا بلال قم فناد بالصلاة"[2].

المئذنة من خلال المصطلح ذات وظيفة دينية وهي الإعلام بحلول وقت الصلاة، ولم يظهر هذا المصطلح إلا بعد الفتح الإسلامي لبلاد الشام ومصر وبداية بناء أولى المآذن في العالم الإسلامي في كلّ من دمشق ومصر.

تؤدي المآذن عدة وظائف، منها الدعوة إلى وقت الصلاة، كما سمحت عمارتها وارتفاعها الشاهق لأن تؤدي وظائف أخرى فاستعملت للأغراض العسكرية كمراكز للمراقبة، فقد سمح ارتفاعها برؤية الجيوش الأعداد من مسافات بعيدة.

ولهذا نجد أنه يطلق عليها اسم "العساس" في بلاد المغرب الإسلامي والأندلس وقد استعملت ثلاث مصطلحات في اللّغة العربية كدلالة على المئذنة: المئذنة، الصومعة، المنارة.

فالمئذنة كلمة مشتقة من فعل الآذان، وهو النداء للصلاة، وجمعها مآذن، أذن إليه والآذان بالشيء علم به، وآذن تأذينًا بالصلاة وأعلم بها ودعا إليها[3]، الأذن عضو للسماع، والآذان للإعلام[4].

وسميت المئذنة بهذا الاسم، نظرًا لإلقاء الآذان منها على الناس.

أما الصومعة فمأخوذة من الصوامع التي كان ينقطع فيها الرهبان المسيحيين في صحراء شبه الجزيرة العربية وبلاد الشام.

وكانت كنيسة دمشق التي بنيي فيها الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك المسجد الأموي، تقوم في أطرافها أربعة أبراج، يعود أصلهما إلى المعبد وثني يوناني، ويستعمل سكان المغرب الإسلامي لفظ الصومعة للدلالة على المئذنة ولذلك شاع استعمالها في الجناح الغربي للدولة الإسلامية، وسميت بهذا الاسم لأنها تشبه طراز أبراج الرهبان والزهاد، ولا زالت التسمية مستعملة إلى يومنا هذا في بلاد المغرب العربي.

أمّا المنارة فقد استعملت للدلالة على المكان الذي فيه نار ويعطي ضوءًا للسفن، وكانت في نفس الوقت تعطي إشارة عند تحركات الأعداء، وذكر ماركس. ف بارشام إلى وجود ثلاث مجالات لاستعمال المنار منها المهرجانات الدينية، والعمارة، واللّغة.

وقد ورد هذا الاسم في ذاكرة المعارف الإسلامية، فقد استعملت اللفظة للدلالة على "المآذن" كاصطلاح عرف في شمال إفريقية: وأوّل إشارة له كان في مئذنة القيروان.

ولقد أعطت المئذنة للمساجد طابعًا خاصًا وعرفت تطورًا عبر الزمن وذلك من منطقة إلى أخرى.

أشكال المآذن في العالم الإسلامي:

إن المئذنة التي أعطت للمساجد طابعًا خاصا ومميزا يختلف طرازها من عصر إلى آخر، ومن منطقة إلى أخرى، فهناك المئذنة المربعة والمئذنة المثمنة الأضلاع والمئذنة الأسطوانية والمخروطية والمئذنة الحلزونية.

فبالنسبة للشكل المخروطي، فهو ميزة امتازت بها بلاد فارس، أمّا الشكل المربع فانتشر في بلاد الشام والمغرب، والأندلس، في حين انتشرت المآذن الأسطوانية الشكل المزودة برؤوس مخروطية مذبذبة (قلمية الشكل) عند الأتراك، وفي مصر اتخذت المآذن أساليب متعددة توجد في العصر المملوكي، واتخذت طابعًا مصريًا، بينما شاع في مصر العثمانية طابع المئذنة القلمية الشكل ويمثل ذلك في مئذنة جامع سنات باشا بالقاهرة[5].

عناصر المئذنة

1.**القاعدة**: وهي نقطة ارتكاز المئذنة وقد تكون مربعة أو مثمنة أو أسطوانية، فتبنى فوق أرض صلبة لإمكانية رفع البدن عليها حسب المسافة المطلوبة.

2.السلم: يرتقي منه المؤذن إلى الآذان، وغالبا ما يكون داخليا وقد يكون خارجيا كما هو الحال في مئذنة الملوية بسمراء، أو يكون مزدوجا بالداخل، بحيث كل سلم يؤدي إلى شرفة، وقد يكون للمئذنة ثلاثة سلالم كما في مئذنة جامع أوج شرفلي بتركيا ذات ثلاث شرفات.

3.البدن: وتعدد أشكاله فمنه المربع كما في سوريا وبلاد المغرب والأندلس ومصر أو الحلزوني كمئذنة الملوية بالعراق أو المثمن وقد يكون أسطواني كمآذن تركيا.

4.الشرفة: هي المكان الذي يقف فيه المؤذن للآذان وهي تشرف على المدينة وتوجد عادة في أعلى المئذنة حول الجوسق، وقد تتعدد في المئذنة الواحدة كما هو الحال في مآذن تركيا، يعلوا شرفات بعض المآذن مظلات من الخشب على شكل بارز مائل، وذلك في المناطق الممطرة[6] وقد تكون مكشوفة في المناطق الجافة.

5. الجوسق: يتوسط الشرفة تعلوه قبة أو سقف مخروطي في أعلى قمته يوجد سفود أو جامور بارز، يحمل بدوره كرات معدنية على شكل تفافيح غالبا ما تنتهي بهلال ونجمة وفي بعض الأحيان نجد الهلال فقط، وقد تحتوي في بعض المآذن جوسقين، وقد يتعدى إلى أربعة مثل مئذنة الغوري بالغورية[7].

وتتعدد أشكال الجوسق، بحيث يظهر بعض الأحيان مربعا أو أسطوانيا ينتهي بسقف مخروطي مثل مئذنة جامع السفير بالجزائر.

المواد المستعملة في بناء المآذن:

تعتبر المئذنة العنصر المعماري الذي يستطيع أن يقاوم الزمن لأن طريقة بنائها جد متقنة، فحتى لو تهدم المسجد فإن المئذنة تبقى قائمة كما هو الحال في قلعة بني حماد ومئذنة جامع أقادير بتلمسان ومئذنة جامع منصورة في العصر المريني[8].

فمن حيث مواد بناء المآذن فقد تنوعت وتباينت وفقًا للمناطق التي أقيمت فيها المآذن، فقد استعمل الحجر في الأندلس والشام وآسيا الصغرى وبعض المناطق في العراق، أمّا الآجر والقرميد فكان المادة الشائعة الاستعمال في مآذن المغرب الإسلامي والعراق وفارس وأفغانستان، أمّا في الهند فقد استعمل كلّ من الآجر والحجر[9].

1- المسجد الكبير بتلمسان :

يعتبر جامع الكبير بتلمسان أحد روائع الفن والعمارة المرابطة في الجزائر حيث تداخلت فيه الكثير من مظاهر التأثيرات المغربية الأندلسية.
ولقد بنيت هذا المسجد في عهد علي بن يوسف بن تاشفين سنة 530هـ 1135م،

وقد تعرض الجامع لإصلاحات في العصر الموحدي، وأضيفت إليه في العصر الزياني زيادة تضم بنيان المئذنة(اللوحة 1) مما يبين أن الزيادة التي أجريت في الجامع شملت بيت الصلاة حتى الموقع الحالي للمئذنة[10].

مئذنة الجامع الكبير:

بنيت مئذنة مسجد الجامع الكبير في عهد بني زيان بأمر الأمير الزياني يغمراسن بن زيان سنة 679هـ/1280م وهي السنة التي أقيمت فيها مئذنة جامع أقادير بتلمسان، ولذالك فهي وثيقة الصلة من حيث طابعها العام وأسلوب بنائها[11] وتعتبر هذه المئذنة نموذجا للمآذن الزيانية في المغرب الأوسط وهي رائعة الجمال تندرج بمظهرها الأصيل في عداد المآذن المربعة التقليدية في الشمال الإفريقي، كما أنها لا تختلف إطلاقا في نظامها عن مئذنة جامع أقادير[12].

تقع المئذنة في منتصف الجدار الشمالي للجامع على محور المحراب وهي بهذا تخالف ما كانت عليه أغلب مآذن هذه الفترة، فهي تحتل الجهة الشمالية الشرقية للمسجد[13] فهي مربعة الشكل وتتألف من طابقين:

الطابق الأول:

البرج الرئيسي ذو قاعدة مربعة الشكل يصل ارتفاع البرج إلى 26.15م وضلعها يساوي 6.30م[14] ويدور في الفراغ ما بين الجدار الخارجي للمئذنة و الدعامة المركزية الذي يبلغ طولها 2.80م ويبلغ ضلع البرج من الداخل 4.72م أما عدد درجات السلم فيصل إلى 130 درجة، عرض الواحدة منها 0.95م ويحتوي كل جناح من 5 إلى 6 درجات[15]، نصل إلى الدرج عن طريق باب من الخشب على اليسار غرفة بابها من الخشب ربما كانت مخصصة لحفظ مستلزمات المسجد وقد تكون مناما للمؤذن.يتخلل جدار الطلعة الأولى(Premier volet) الذي يشتمل على 6 درجات فتحة على شكل مزغل(Meurtrie) واسع من الداخل وضيق من الخارج، أما الطلعة الأخيرة التي تفضي إلى سطح الطابق الأول تشمل على 10 درجات ينتهي البرج بحائط صغير يبلغ ارتفاعه 1.36م وسمكه 0.52 م وينتهي هذا الحائط بشرفات مسننة[16] ويبلغ ارتفاع الرشرفة 0.96م وعرضها في القاعدة 1.10م أما عرضها في القمة يساوي 0.40م ويبلغ عدد الشرفات 12 شرفة عادية و4 شرفات زاوية أما عدد أسنانها فهي 5 أسنان. وتنفتح في جدران المئذنة فتحات مربعة للاضاءة و التهوية، أما المزاغل من المحتمل أنها كانت تؤدي دور المراقبة أثناء الحصار المريني لتلمسان، ويجرد القول أن القبوات المتقاطعة التي تعلوا الدرج بالقرب من السطح الطابق الأول من المئذنة ثم رممت بعوارض من الخشب و الحديد لتدعيم جدار المئذنة، أما الدوة الأخيرة تؤدي إلى سطح الطابق الأول الذي ينصب عليه الجوسق.

الطابق الثاني:

يتمثل في من جوسق المئذنةويبلغ ارتفاعه 4.70 م ابتداءا من نهاية البرج الأول وعرض قاعدته 2.90 م ويحيط بالجوسق حائط صغير يبلغ ارتفاعه 1.36 م وسمكه 0.52 م وينتهي الحائط بشرفات مسننة[17]، ويبلغ ارتفاع الشرفة 0.40 م ويبلغ عدد الشرفات 12 شرفة عادية و4 شرفات زاوية أما عدد أسنانها فهي 5 أسنان. وينتهي الجوسق بقبيبة بوصلية الشكل يعلوها عمود معدني بأمور مثبت عليه تفاحتين كتب عليها النص اليمن والإقبال[18].

زخرفة المئذنة:

إن زخرفة الطابق الأول من أوجهه الأربعة تكاد أن تكون متماثلة، فكل واجهة تتوسط نصفها العلوي حشرة مستطيلة الشكل تزداد بشبكة من المعينات منبثقة من أربعة عقود مفترضة وتتقاطع فيما بينها مؤلفة من شبكة المعينات وترتكز على هذه العقود على خمسة أعمدة، إن شبكة المعينات التي تكسوا البرج تكاد أن تكون متطابقة فتجد في الواجهتان الشرقية والغربية نجد 7 صفوف كل صف يتكون من معينات و 6 صفوف من 3 معينات ومجموع 32 معينا. أما الواجهة الجنوبية نجد 6 صفوف كل صف يحتوي على 4 معينات و7 صفوف

كل صف يحتوي على 3 معينات. فتتكون المجموع 45 معين. أما القسم العلوي للمعينات فينتهي بعقد رخو برأس واحد يتناوب مع عقد رخو برأسين من الواجهة الشمالية والغربية.

أما زخرفة الجوسق فهي متماثلة في الأوجه الأربعة يتوسط الجو سق إيطار مستطيل به عقود على شكل جدوة فرس ويحتوي على شبكة من المعينات ويحيط به إفريز من الفسيفساء يكسوهما تربيعات من الزليج.

2- المسجد الكبير بندرومة:

شيد هذا الجامع بندرومة وهو من أهم الآثار التي قام بها المرابطون بإنشائها في المغرب الأوسط، فيمتاز هذا الجامع بالبساطة ويرجع تأسيسه حسب بورويبة في شوال سنة 539 هـ/1145م[19].

مئذنة جامع ندرومة:

آخر مئذنة شيدت في أواخر حكم بني عبد الواد هي مئذنة جامع ندرومة بتاريخ 749هـ/1348 م، من قبل السكان ندرومة نفسها ويؤكد هذا التاريخ الكتابة المنغرسة على الرخام في الجهة اليمنى من المدخل الرئيسي للمئذنة وتلتسق المئذنة بالجدار الشرقي للجامع بجانب المدخل الرئيسي فهي ذات طابقين مربعة الشكل طول ضلعها 4.90م أما ارتفاعها الكلي يبلغ 24.70م

الطابق الأول:

مربع الشكل ارتفاعه 20.50 م تدخل إلى المئذنة بواسطة باب يؤدي إلى درج يفضي إلى سطح الطابق الأول ويبلغ عدد الدرجات 102 درجة ويبلغ طول كل درجة من الدرجات 82 سم أما نظام توزيع الدرجات فيتغير بأعلى درجة في الدورة الأخيرة حيث تنقسم الدعامة المركزية إلى قسمين تخترقها عشرة درجات تؤدي إلى جوسق المئذنة، يدور الدرج حول دعامة مركزيةصماء طول ضلعها 1.20 وبسقف الدرج قبو نصف أسطواني ينحصر بين قبوين متقاطعين الزوايا وتتخلل الجدران الداخلية للمئذنة فتحات على شكل مزاغل.

الطابق الثاني:

عندما تصل إلى آخر درجة في الدورة الأخيرة للطابق الأول نجد درجا آخر يؤدي إلى غرفة المؤذن الذي يبلغ ارتفاعها 4.20 م فهي أعلى جزء من المئذنة ذات شكل مربع تعلوها قبة ويعلوها سقف بارز خالي من الكريات.

زخرفة المئذنة:

إن زخرفة أوجه المئذنة غير متماثلة في الأوجه الأربعة فكل واجهة مكسوة بمعينات تغطي معظم المساحات مغلفة بزخارف أجرية ولقد نزينت وجوهها الأربعة بزخارف الوردية التشكيل[20].

وعلى الغموم تتمثل زخرفة المئذنة الطابق الأول بحشوتين متراكبتين الأولى صغيرة تنحصر داخل إيطار مستطيل الشكل وزخرفتها عبارة عن عقدان مفصصان بينهما عمود مركزي في الوسط، فالوجهتان الشمالية والجنوبية تتحلى بعقود نصف دائرية متجاورة خماسية الفصوص.

أما الحشوة الثانية فهي أكبر صحنا من الأولى وتحتل معظم سطح الطابق الأول وتمتاز زخرفتها بعقود ثلاثية مقرنصة رؤوسها مدببة تقوم على عمودين مركزيين تحتل شبكة من المعينات تتوزع كالتالي:

10 صفوف وفي كل صف 6 معينات

8 صفوف في كل صف 4 معينات

أما زخرفة الجوسق فهي خالية من أي زخرفة بل يعلوها فتحة على شكل عقد نصف دائري متجاوز، أما شرفة المئذنة فهي عبارة عن حائط بخمسة عقود مقرنصة في الواجهتين الشمالية والجنوبية وثلاثية عقود مقرنصة في الواجهة الشرقية والغربية.

3- جامع المنصورة:

لم يتبق من الجامع اليوم إلا جدران من الطوب المدكوك ومداخله ومحرابه والأوجه الثلاث الخارجية لمئذنته الشامخة التي لا تزال قائمة تقاوم صروف الدهروإهمال الإنسان.

مئذنة جامع المنصورة:

تقع المئذنة في منتصف الضلع الشمالي للجامع وهي ترتفع فوق مدخله الرئيسي المحوري بقاعدتها، وقد اندثر جوسقها المتوج لها ونصفها الداخلي المشرف على داخل الجامع على بعض أجزاء الواجهتين الشرقية والغربية، ورغم ما تهدم منها فإنها ما تزال أجزاءها الباقية تحتفظ بأصالتها المعمارية وقيمتها الفنية، وقد أشار ابن خلدون الى بناء المئذنة بقوله"... وابتنى بها جامعا يشيد له مئذنة رفيعة..."[21]. ولا تزال هذه الصومعة قائمة حتى اليوم رملية اللون رائعة الحجم. وهي مبنية من الحجر الرملي، وتمتاز هذه الصومعة عن غيرها من صوامع الجزائر من

أنها أكثرها ارتفاعا وأنها تقوم على حجرات متوضع بعضها فوق بعض تماما كما هو الحال في صوامع الكتيبية في مراكش وحسان في الرباط[22].

بنيت مئذنة المنصورة في شكل مربع طول ضلعها 10 أمتار وعلوها شاهق يصل إلى 45م وبناؤها متناسق وكانت مؤلفة من برجين، البرج الرئيسي وهو البدن وبرج آخر وهو الجوسق، وقد هدم هذا الجوسق كله ولم يبق منه أي أثر[23].

ندخل المسجد من قاعدة المئذنة في خاصية فريدة من نوعها يمتاز بها جامع المنصورة عن باقي المساجد، يعلوا الباب قوس نصف دائري Arc en plein cintre مقياسها 2.5م وهي مزينة ببدخ الزليج المطلي (Faïence émaillée)، ومتوجة بشرفة balcon مزخرفة أيضا ببدخ وفي محيط هذا الباب نقشت كتابة بخط أندلسي غير واضح نصها كالآتي" الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين، أمر ببناء هذا المسجد المبارك أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين المقدس المرحوم أبو يعقوب يوسف بن عبد الحق رحمه الله" ويظهر أن هذه الكتابة قد تمت بعد موت الأمير المريني وأغلب الظن انها كتبت في فترة الحصار الثاني لتلمسان[24].

يؤدي مدخل المئذنة الى ردهة مستطيلة الشكل مبلطة بالآجر على جانبها غرفتان اليمنى مستطيلة الشكل ومغلقة يعلوها بقايا عقد أما اليسرى فلا تزال تظهر فيها أثار قبوات متقاطعة[25] وحسب ليزين أنها كانت مخصصة لحفظ أثاث المئذنة.[26]

تتركب المئذنة من الداخل على نواة مركزية مجوفة يبلغ طول ضلعها 2.51م ويحيطها سور سمكه حوالي1م، وقد حمل الحائط الجنوب الشرقي و الشمالي الغربي فوق السقيفة بعقود مزدوجة اندثرت حاليا ولم يبق منها الا اثرها ويتفق الجزء إلا على برج المئذنة من حيث الحجم مع جوسقها المندثر غير ان تصورنا له يجعلنا نرجح مقاس عرضه بحوالي 4.50م[27]. ومن خصوصيات هذه المئذنة أننا نصل إلى سطحها العلوي بواسطة طريق صاعد يشبه بحد كبير المنحدرات التي تظهر في فترة حكم العباسيين، ففي مئذنة جامع المتوكل وأبي دلف في سمراء في القرن الثالث الهجري كان لهما منحدران خارج المئذنة غير أن هذا المنحدر في مئذنة المنصورة يوجد بداخلها، وقد ظهر هذا الطراز لأول مرة في مئذنة الكتبية بمراكش وهي من أجمل المآذن في المغرب والأندلس في رقتها وتناسق عمارتها[28]. ثم نجد بعد ذلك في منذنة حسان بالرباط، وهي تشبه منار الاسكندرية في ارتفاعها والطريق الصاعد إليها، أدى بالكثير من الباحثين الى ترجيح تأثير المآذن الموحدية بمنار الاسكندرية. فلعل الموحدين حين

استولوا على القلعة سنة (547هـ – 1125م) فقد أعجبهم هذا الطراز واقتبسوه من العمارة الحمادية وهو الرأي الذي يميل إليه قولفين (Golvin)[29].

يقول ابن المرزوق عندما يصف ممر المئذنة" ولاشك أن صومعته لا تلحق بها صومعة في مشارق الأرض ومغاربها صعدتها غير مرة مع الأمير أبي على الناصر، وهو رحمه الله على فرسه وأنا على بغلتي من أسفلها إلى أعلاها... وكانت على الباب الجوفي منه ولها ممران، يطلع فيها إلى أعلاها..."[30] ومن هذا الوصف يتضح لنا أن المئذنة كانت توجد بها غرف في طبقاتها المختلفة يدل على ذالك النوافد الحديدية إما على شكل مزاغل أوعلى شكل طاقات مختلفة الاشكال (مربعة، مستطيلة) مخصصة للإضاءة والتهوية و المراقبة ولا تشك في وجود غرفة للحراسة بالمئذنة بدليل أنه ينفتح في جدرانها منافذ عديدة، ويتم الوصول الى القمة بواسطة طريق صاعد أو منحدر يدور سبعة دورات حتى شرفة المئذنة[31] وفي أعلى البرج الأول يوجد الجوسق وقد كان يعلوه سفود من الحديد علقت به ثلاث كريات على هيئة تفافيح ويذكر ابن مرزوق أنه رأى هذا السفود قائما وهو من الحديد والتفافيح [32]قد اختفت بعد سقوط الجوسق.

زخرفة لمئذنة:

الواجهة الرئيسية:

تنقسم واجهةالمئذنة إلى خمس حشوات متراكبة:

الحشوة الاولى: تتكون من قوس بارز متعدد الفصوص تتناوب فيه وهو فصوص كبيرة واخرى صغيرة، يرتكز على عضاضتينوتطوقه زخرفة هندسية قوامها أقواس متقاطعة تتخللها دوائر مفرغة كل فص منه يشمل على ثلاث فصوص صغيرة مرصعة بقطع من الفسيفساء الزخرفية السوداء اللون ذات أشكال بيضية، ويحيط العقد تربيعة تمتد إلى المستوى الادنى للعضادات ويشغل بنيقتان خواصر العقد زخارف نباتية محفورة وهي في الحجر المتداخلة فيما بينها قوامها مراوح نخيلية بسيطة وبراعم نباتية، وتبرز في كل من البنيقتين محارة بارزة ومفصصة ويدور بهذه الحشوة الزخرفية التي تعلوا مدخل المئذنة شريط عريض من الكتابة النسخية على ارضية نباتية تنتهي حروفها بمراوح نباتية.

الحشوة الثانية: تتألف من بائكة من سبعة عقود مقرنصة صغيرة وكبيرة على التناوب ترتكز على أعمدة صغيرة وتبدو هذه البائكة بارزة عن وجه المئذنة.

ومن الجدير بالذكر أن هذه العقود المقرنصة ظهرت لأول مرة في زخارف المئذنة الجزائرية، ويلي هذه البائكة طاقتان واحدة في كل جانب ينحصر بينهما إفريز بارز يرتكز على البائكة البارزة[33].

الحشوة الثالثة: تتألف من فتحة مربعة الشكل معقودة بعقد مقرنس منكسر تحيط به تربيعة، ويلف هذه المجموعة عقد بارز مقرنص منكسر كبير الحجم، وتنتهي الحشوة من أعلى بفتحتين مستطيلتين يعلوا كل حشوة كل جانب.

الحشوة الرابعة: تنقسم إلى ثلاث لوحات رأسية، اللوحات الجانبية منها متناظرتان تتكون من عقد متعدد الفصوص تتناوب فيه الفصوص المستديرة مع الفصوص المدببة، وكان العقد يتركز على عموديين اختفيا حاليا. يعلوا هذا العقد شبكة من المعينات، قوامها متقاطعة تتألف من فصوص مماثلة لفصوص العقد وكلها من الآجر رصعت بقطع خزفية (خضراء وخضراء فاتحة وسوداء اللون) ويتوسط القطاعين المتناظرين قطاع أوسط يتألف من نافذتين متراكبتين مستطيلتين معقودتين بعقدين نصف دائري تطوق كل منهما تربيعة، ويعلوا هذا القطاع معينات تتصل بالشبكتين السالفتي الذكر.

الحشوة الخامسة: قوامها بائكة من خمس عقود مفصصة ترتكز على ستة 6 أعمدة من الرخام الأبيض لم يتبق منها إلا أربعة وفي وسط كل عقد فتحة مربعة الشكل صغيرة ماعدا الفتحة الوسطى فهي فتحة مستطيلة الشكل كبيرة الحجم، وينتهي هذا الطابق من المئذنة بمسطح عاطل من الزخرفة تليه قمة المئذنة التي لم يبق منها أي أثر.

الواجهة الجانبية: تتكون الواجهة الجانبية من أربعة حشوات:

الحشوة الأولى: تزدان تجويفتين موزعتين كل واحدة في جانب الفتحة الشمالية غائرة، تفتح أسفلها طاقة مستطيلة الشكل وعقد اعلاها بعقد متعدد الفصوص ويعلوا هذا العقد شبكة من المعينات المتشابهة، أما الطاقة الجنوبية فصماء وهذه الجوفة معقودة بعقد منكسر، ويتوسط الجوفين على مستوى أكثر ارتفاعا، جوفة أخرى معقودة بعقد نصف دائري، ويعلوا العقد إطار بقيت فيه الزخارف الهندسية تمثل خطوطا وأشكالا معينات وفصوص.

الحشوة الثانية: تتألف من مربع غائر ينحصر بين إفريزين بارزين ينتهي أعلاه بدخلتين مربعتي الشكل وتزدان هذه الحشوة بعقد منكسر متدرج، يضم عقدين مقرنصين، أما جدار المئذنة يتراجع ويضيق محيطه كلما ارتفعت.

الحشوة الثالثة: تتألف من عقد مقرنص ينبثق من مفتاحه نحران يمتدان وتتقاطع معها نحور أخرى مؤلفة شبكة من المعينات رصعت أرضيتها بقطع الفسيفساء الخضراء والسوداء اللّون، أما القسم المجاور لها فيتكون من حنيتين مصممتين واحدة فوق الأخرى.

الحشوة الرابعة: وهي أصغر الحشوات حجما، فتزدان بثلاثة عقود مفصصة تقوم على أربعة أعمدة لم تبق منها إلا عمودان فقط.

4- جامع سيدي أبي مدين:

يبعد عن مدينة تلمسان بكيلومتر واحد، بني جامع أبي مدين سنة 739هـ/1339م في العباد ويوجد الجامع في وسط المجموعة المعمارية المتكاملة التي شيدها السلطان أبو الحسن المريني وتتكون هذه المجموعة من ضريح سيدي أبي مدين و قصرا وحماما ومسجدا إضافة إلى المدرسة الخلدونية.

مئذنة جامع سيدي بومدين:

تقع المئذنة في الركن الشمالي الغربي للجامع، ترتفع على امتداد البلاطة الاخيرة من المسجد، وهي ذات طراز مغربي من حيث شكلها وتخطيطها ونظامها المعماري. فهي تشبه المآذن المرينية بالمغرب والزيانية بتلمسان.

والمئذنة عبارة عن برج مربع، يقدر ارتفاعها الكلي بحوالي 27.5م بحيث يمكن للناظر أن يراها من مسافات بعيدة تحفها بساتين ومنتزهات العباد.

الطابق الأول:

يعتبر جزءا منها ومن مبنى المسجد ذو قاعدة مربعة طول ضلعها من الخارج 4.5م ومن الداخل 3.30م، وسمك جدارها 0.60م وارتفاع البرج الكلي حوالي 23.7م وتحيط بالقاعدة ملحقات استغلت قديما لصالح الزوار والحجاج الذين كانو يعبرون تلمسان[34].

نصعد إلى أعلى المئذنة بواسطة درج يدور حول دعامة مركزية مملوءة طول ضلعها 1.70م وفي كل دورة خمس (5) درجات ويبلغ عدد درجاتها 86 درجة ويصل طول الدرجة الواحدة 0.75م[35]، ويغطي الدرج قبوة متقاطعة يليها قبوة نصف أسطوانية على التناوب، ويتخلل جدار الدورة الثالثة طاقة معقودة بعقد مدبب يتجاوز نصف الدائرة، وأضيئت الدورات بنوافذ مستطيلة ضيقة تحتل من الخارج إطارا مستطيلا وسط شبكات زخارف المعينات أو داخل العقود الزخرفية، وهناك دخلة واسعة مستطيلة ومعقودة أشبه ما تكون بشرفة يمكن الإشراف منها على سقف الجامع وصحنه، وتتكون دورة الدرج الأخيرة من تسع مراقي عوضا عن خمس في الدورات الأخرى، ويقابلها يمينا غرفة مستطيلة تشبه الغرفة السفلية القائمة عند المدخل يعلوا بابها عقد منفرج، ويتوسط الشرفة الطابق العلوي الذي يتراجع قليلا عن جدار بدن المئذنة.

الجوسق:

يقوم في وسط سطح البرج الجوسق العلوي للمئذنة أو البرج الثاني، حيث يتراجع جدران البرج الأسفل بما يسمح للمؤذن بالحركة والطواف حوله.

ندخل الى الجوسق من باب ضيق نصعد اليه بدرجة واحدة (عتبة) وهو معقود بعقد مدبب وتعلوه زخارف متشابكة، وغرفة الجوسق مربعة الشكل طول قاعدتها 1.88م وارتفاعه 5.40م، تغطيه قبيبة نصف دائرية تبدوا من الداخل ضحلة وينتصب في أعلاها جامور ذي ثلاث تفافيح كبيرة ذهبية اللون تتدرج في حجمها من الأسفل إلى الأعلى وتنتهي بهلال.

زخرفة مئذنة سيدي بومدين:

إن زخرفة المئذنة تختلف من واجهة إلى أخرى فهي متكونة من زخارف متنوعة يغلب عليها تشبيكات المعينات تنتهي في أعلى البرج الأول بإفريز من الزليج على شكل حزام يمتد على الأوجه الأربعة لها ويقول ابن مرزوق "والصومعة كذالك في غاية الحسن والاتقان، كل جهة من جهتها الأربعة تخالف الأخرى في النوع والإحكام وذُهِّبت تفافيح جامورها بثلاثمائة وسبعين دينارا ذهبا".[36]

تبدأ زخرفة البرج ابتداءا من3/1 من ارتفاع البرج[37] وتشغل حوالي 10/7 عرضها، يتوج المئذنة حزام فسيفسائي ذي زخارف مكونة من الأطباق النجمية بألوان متعددة ويظهر أن هذه النجمات قد جددت ولعل التجديد حدث في حوالي سنة 1973م و قد تمت عملية الترميم بطريقة روعيت فيها القوالب والصيغ القديمة[38].

الواجهة الجنوبية:

وقوام زخرفتها لوحة فنية تنقسم إلى حشوتين :

الحشوة الأولى : صغيرة وزخرفتها عبارة عن طاقة معقودة بعقد نصف دائري يعلوها عقد مفصص كبير وتطوقها تربيعة مستطيلة الشكل يعلوها عقد متعدد الفصوص يرتكز على كابولين[39].

الحشوة الثانية: يصل ارتفاعها إلى بداية الجوسق، زخرفتها تقوم على بائكة ثلاثية العقود، خطوطها زخرفية على شكل عناصر أشبه ما تكون بالمقرنصات تعلوها عقود نصف دائرية متراكبة على شكل صفوف.

الواجهة الجنوبية والغربية:

واتبع المعماري في نفس النظام في زخرفة الواجهة الجنوبية وهي متكونة من حشوتين:

الحشوة الأولى : صغيرة وزخرفتها عبارة عن نافذة منحوتة ضمن إيطار مستطيل، وهذه النافذة المنحوتة معقودة بعقد نصف دائري متجاوز يعلوها عقد مفصص كبير من 11 فضا منخرط بدوره في عقد مفصص نصف دائري متجاوز بتناوب مع عقود مفصصة على شكل عقد منكسر وتطوقها تربيعية مستطيلة الشكل.

الحشوة الثانية :زخرفتها عبارة عن تشبيكات منكسرة من زخارف على شكل معينات تقوم على بائكة معقودة، ثلاثية العقود منكسرة زخرفية، خطوطها التحديدية على شكل عناصر أشبه ما تكون بالمقرنصات ويصل عددها إلى 8 صفوف وكل صف يحتوي على 4 معينات بثلاثة رؤوس، بحيث الرأس المركزية تتكئ على عمود من الآجر Pilastre وهذه الوضعية لا نجدها في أي مئذنة أخرى[40].

الواجهة الشرقية:

وهي الواجهة المطلة على الصحن، وتتكون من حشوة واحدة فقط لأن الجزء السفلي منها يخلو من أي مظهر من مظاهر الزخرفة وذلك لاختفاء قاعدة المئذنة بملاحق المسجد، وفي هذا الجدار نجد ايطار مربعا نقرأ فيه الكتابة التالية" بركة محمد"

وقد كتب بخط كوفي ذي خصائص مربعة[41] ويعتقد "مارسيه" أنه المثال الوحيد في تلمسان وربما أحد الأمثلة المغربية الناذرة من هذا النوع من الزخرفة الكتابية والتي استعملت كثيرا في المشرق وهو الخط الكوفي[42].

هذه الحشوة هي الوحيدة في الواجهة الشرقية تحتل زخرفتها شبكة المعينات ذات ورديات ثلاثية الفصوص فهي عبارة عن 8 صفوف وفي كل صف 8 معينات، متدرجة تنتهي بعقديين مدببين، وكل عقدين غائرين يعلوهما عقد نصف دائري بارز يزدان بقطع الفسيفساء الخزفية على شكل دوائر مربعة و معينات مزهرية رصع منها فراغان نباتيان يعلوها برع حتى نصل إلى أعلى المئذنة.

الواجهة الشمالية:

وهي عبارة عن لوحة فنية فريدة من نوعها، في أسلوب زخارفها وهي ذات حشوة واحدة غائرة من الأسفل إلى الأعلى لأن مكان الحشوة الأولى يدخل في نطاق جدار المسجد فهي مقسمة إلى ثلاث حشوات مستطيلة، عمودية، الوسطى منها مزينة بنافذة منحوتة ضمن ايطار المستطيل، وينقسم الإيطار إلى أربعة أقسام، الأولى قصيرة تتمثل في فتحة لإنفاذ الضوء والهواء معقودة بعقد مدبدب، أما الثانية فهي غائرة وتخلو من الزخارف. الثالثة فهي أكثر ارتفاعا يتخلل القسم الأدنى طاقة صغيرة معقودة بعقد مدبدب يعلوها زخارف على شكل معينات منكسرة ومتراكبة، ويعلوا كل معين عقد مدبدب صغير، أما القسم الاخير فهو عبارة عن طاقة مفتوحة لإدخال الضوء والهواء معقودة بعقد نصف دائري ويحيط به تربيعية بارزة[43].

أما الحشوتان الجانبيتان فهما متناظرتان عبارة عن شبكة من عقود منكسرة تنتهي بعقود مدببة، متكونة من تسعة صفوف كل صف بمعينان.

يتم تهوية وادخال الضوء الى المئذنة بواسطة نوافذ نحتت داخل شبكة معينات وهي موزعة كالتالي:

فتحتان متتابعتان في الواجهة الغربية للمئذنة، ونافذة على يسار الواجهة الشرقية المطلة على صحن المسجد وفتحة في الواجهة الشمالية في جزءها العلوي و نافذة ثانية في جزئها السفلي. تتخذ هيئة العقد النصف الدائري، وتعتبر الفتحتان في الواجهة الشمالية العليا وفي الواجهة الشرقية أكبر الفتحات، أما الفتحتان الأخريتان فهما عبارة عن فتحات صغيرة وضيقة، منقوشة داخل شبكة المعينات، وهي بذالك تشبه ما كانت عليه النوافذ في المئذنة الزيانية[44].

يعلو الواجهات الأربعة شريط من قطع الفسيفساء الهندسية، عبارة عن مربعات ومستطيلات، ثم يعلوا الشريط الأول آخر أكثر اتساعا تشغله أطباق نجمية أو زهرية تحتوي على 24 فرعا وتنخرط في مربع، وكل واجهة زخرفت بثلاث زهريات كاملة محاطة بنصف زهريات تتواصل على الواجهات الأخرى[45].

ويملأ الفراغ بينهما قطعة أخرى مربعة ومستطيلة ومتعامدة ومعينات ودوائر، وتمثل الزهريات تشابكا في الخطوط البيضاء التي تحد المساحات التي يسودها اللون الاسود، ويتلاقا فيها اللون الأخضر والأصفر فتكون نجمية ذات 24 رأسا محاطة بخطوط منكسرة[46]، ويلي هذا الشريط شريط آخر ضيق تكسوه قطعة من الفسيفساء الخزفية فهي متكررة باللون الأبيض على شكل(w).

وينتهي البرج بشرفات مسننة عددها أربعة من منتصف كل واحهة وأربعة أخرى ركنية فيصبح عددها 16 شرفة و4 ركنية وتكسوا أوجهها أطباقا نجمية أصغر حجما من أطباق الإفريز وذالك بزليج متعدد الالوان وتتكون تلك الأطباق من نجوم مركزية ذات 9 رؤوس، وهذا النموذج فريد من نوعه في زخرفة الشرفات ولا مثيل له في مساجد تلمسان الزيانية وقد استعمل المرينيون هذه الزخرفة في المسجد الكبير[47] ويبلغ ارتفاع الحائط 1,11م وسمكه 0,30م وارتفاع الشرفة 0,49م وعرض قاعدتها 0,60م وعرض قمتها 0,22م[48].

زخرفة الجوسق:

زخرفة الجوسق عبارة عن حشوة مستطيلة داخلة تزينها شبكة من المعينات ترتكز على عقد ذي شرفة من رأس واحد، وهذه المعينات قائمة على عقد رخوي ذي خطوط من الفصوص والدلايات، يشكل مفتاحه فص

واحد أو فصان، ويكسوا مركز العقد وفراغ المعينات زخارف من الزليج المتعدد الألوان قوامها عناصر نباتية وهندسية أساسها وريدة ثلاثية ويحيط هذه التشبيكات شريط من الزليج على شكل أطباق نجمية ذات 12[49].

الهوامش

[1]– عبد الكريم عزوق: القباب والمآذن في العمارة الإسلامية، ديوان المطبوعات الجامعية 1996، ص 47.

[2]– ابن حجر العسقلاني: شرح صحيح البخاري، طبعة بيروت 1976، كتاب الآذان، باب بدأ الآذان، ج2، ص 77

[3]–Lucien GOLVIN.: Essai sur l'architecture religieuse musulman. Tome I (généralités) Edition Klincksreck, paris 1970, p:25.

[4]–CRESWELL (K.A.C): Early muslim architecture, umayyads, A.D. 622- 750 vol I , part II, Clarendon press, oxford, 1969, p:38.

[5]– السيد عبد العزيز سالم: المآذن المصرية نظرة عامة عن أصلها وتطورها منذ الفتح العربي حتى الفتح العثماني، مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر، الإسكندرية 1982، ص 33.

[6]– فريد الشافعي: العمارة العربية في مصر الإسلامية، المجلد الأوّل، عصر الولاة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر 1970، ص648.

[7]– زكي محمد حسن: فنون الإسلام، دار الرائد العربي، بيروت 1981، ص، 148.

[8] –Gorge MARCAIS: L'art en Algérie, imprimerie Algérienne, Alger 1906, p: 99.

[9]– عبد الكريم عزوق: المصدر السابق، ص 50.

[10]- George marçais: " sur la grande mosquée de Tlemcen. In Amnales de l'institut d'études orientales tome VIII ; Edition la typo – Litho et Julie Carbonel Serger, 1949-1950, P275

[11]- Marçais (G et W): les monuments Arabes de Tlemcen;Albert Fontemoing Editeur, Paris 1903 P143

[12]- Berque (A): L'Algérie terre Art et histoire, ouvrage publié sous les auspices du gouvernement général de l'Algérie. Alger 1973, P158

[13]- George Marçais : Tlemcen …….p19

[14]– طرشاوي بلحاج: المرجع السابق ص25.

[15]- Rachid BOUROUIBA : L'art musulman en Algerie, S.M.E.B, Alger, 1972 p187

[16]- Rachid BOUROUIBA, Ibid, p186

[17]-Rachid BOUROUIBA:op cit Ibid, P 136

[18]– صالح بن قربة: المئذنة المغربية الأندلسية في العصور الوسطى: المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1986، ص 96.

[19] - Rachid BOUROUIBA : L'art religieux……., P108

[20]– عفيف بهنسي: الموسوعة الأثرية ص574 .

[21]– عبد الرحمان ابن خلدون: العبر، ص 458

[22]– عفيف بهنسي: موسوعة الثرات المعماري، ج2، ص 547

[23]– عبد الكريم عزوق: المرجع السابق. ص64.

[24]– طرشاوي بلحاج: المرجع السابق، ص76.

[25]– عبد الكريم عزوق: المرجع السابق ، ص65.

[26]- Lezine(A): Notes d'archeologique Tlemcenienne in Bulletin d'archéologie algérienne, Tomme I, 1962-1965, Edtions E de Boccard, Paris 1967, p270

[27]- Lezine(A): Op Cit, p270

[28] - H Basset et H Terrasse : «sanctuaires et forteresses almohades », collection Hesperis institut des hautes études marocaines N °VI La rose éditeur. Paris 1932, P 108-109.

[29] - Lucien Golvin: op cit p 286.

[30]– ابن المرزوق التلمساني: المسند الصحيح في مآثر المولى أبي الحسن تصحيح الاستاذ ليغي بروفنسال، اميل لاروز، ارينس 1925، ص 12.

[31]- George Marcais :L'architecture……,p274.

[32]– ابن المرزوق التلمساني: المصدر السابق ، ص 17

[33]– عبد الكريم عزوق: المرجع السابق، ص 102

[34]– لعرج محمود عبد العزيز: " الزليج في العمارة الإسلامية بالجزائر ومن العصر التركي "، ط1، الجزائر ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، ط1، الجزائر، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1990، ص 266.

[35] Rachid BOUROUIBA: l'art religieux…….p272

[36]– ابن مرزوق: المصدر السابق ص18.

[37].Marçais (G W) : op cit, 262

[38]– لعرج محمود عبد العزيز: المرجع السابق، ص 267.

[39]– عبد الكريم عزوق : المرجع السابق، ص 116

[40] Rachid BOUROUIBA : l'art religieux ……p273
[41] Rachid BOUROUIBA : L'art religieux …...…p273
[42] (G.W).Marçais : Les monuments arabes ……..p263

[43]– عبد الكريم عزوق :المرجع السابق، ص 117.

[44]- Rachid BOUROUIBA : L'art religieux ……..p273
[45]- (G.W).Marçais, Les monuments arabes ……..p263
[46]- (G.W).Marçais, Les monuments arabes …….. p263

[47] صالح بن قربة: المرجع السابق، ص 128.

[48]- Rachid BOUROUIBA : L'art religieux ……..…p274

[49]– لعرج محمود عبد العزيز: المرجع السابق، ص 269.